(المحكم والمتشابه في القرآن الكريم)

ما قاله المفسرون والفقهاء فيما وفي تطبيق الآية عليهما

قال تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب).

اختلف المفسرون والعلماء المحققون فيما هو المراد من المحكم والمتشابه على عشرة أقوال:

(الأول) ما قاله الشافعي وهو (أن المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجها واحدا والمتشابه ما احتمل من التأويل وجوها)

(والثاني) ما قاله الإمام أحمد وهو (أن المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان، والمتشابه ما احتاج إلى بيان).

(والثالث) ما قاله ابن عباس وهو (أن المتشابه هو أسماء الحروف المتقطعة في أول السور، والمحكم ما سواها).

(والرابع) ما قاله ابن مسعود وهو (أن المحكم هو الناسخ والمتشابه هو المنسوخ).

(والخامس) ما قاله الأصم وهو (أن المحكم ما كان دليله واضحا لائحا كدلائل الوحدانية والقدرة والحكمة والمتشابه ما يحتاج في معرفته إلى التدبير والتأمل).

(والسادس) ما قاله جابر بن عبد الله وهو (أن المحكم ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلي أو خفي. والمتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت الساعة ومقادير الجزاء على الأعمال وأمور الآخرة والأشياء الغيبية.

(والسابع) ما قاله مجاهد هو (أن المحكم ما أحكم الله بيان خلاله وحرامه. والمتشابه ما أشبه بعضه بعضا في المعاني وإن اختلفت ألفاظه).

(والثامن) (أن المتشابه هو صفات الله خاصة).

(والتاسع) (أن المحكم من أحكم وفصل فيه خير الأنبياء مع أممهم. والمتشابه ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور).

(والعاشر) (أن المتشابه هو ما يؤمن به ولا يعمل به وهو قسم الأخبار والمحكم هو قسم الإنشاء) هذا جميع ما قاله المفسرون في معنى هذه الآيات المحكمات والآيات المتشابهات.

وقالوا إن معنى هذه الآية أن الذين في قولبهم زيغ أي ميل عن الحق إلى الباطل يتبعون المتشابه أي الملتبس بعضه ببعض أو السائل بعضه بعضا ويتمسكون به طلبا لتقرير الباطل وابتغاء للفتنة في الدين ولتأويل آيات القرآن الكريم حسب رغائبهم الفاسدة وتأييدا لعقائدهم الباطلة مع أن المتشابه ل يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم.

(الاختلاف في لفظ الراسخون) هل هو معطوف

على ما قبله أو مستأنف)

ثم اختلفوا هل الراسخون معطوف على لفظ الجلالة فيعلمون تأويل المتشابه أيضا. أو أنه كلام مستأنف فلا يعلمونه بل يقولون كل من عند الله نؤمن به وإن لم نفهم معناه. وأكثر المسلمين على الثاني ولكن المحققين على الأول وقد ذكر الأستاذ الإمام في تفسيره عن شيخ الإسلام ابن تيمية كلاما طويلا وبحثا دقيقا في هذا الموضوع بين فيه بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة أنه ليس في القرآن كلام لا يفهم معناه. وأن المتشابه إضافي نسبي فقد يشتبه على هذا ما لا يشتبه على غيره وإذا اشتبه فيه الضعيف فلا يشتبه فيه الراسخ في العلم فإنه لا يجوز أن يقال أن جبريل والرسول والصحابة وسائر الأمة لا يعلمون معناه إذ لا يعقل أن الله تعالى ينزل في كتابه على الناس ولأجل الناس شيئا لا يمكنهم أن يفهموه وإلا كان إنزاله عليهم ولأجلهم عبثا. وقد أطال ابن تيمية في البيان والاستدلال بآيات القرآن والحديث على ذلك بما يوجب القطع بخطأ من قال أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه في القرآن وأن الله اختص بعلمه مع أن المتشابه جزء عظيم من القرآن فكأن هذا الجزء قد أصبح على كلامهم معطلا وأصبح إنزاله عبثا وهذا مما لا يعقل ولا يجوز أن يقول به أحد) انتهى ملخصه بالمعنى.

(ما أقوله في هذا الموضوع)

أقول إن التأويل له معاني كثيرة منها التفسير والبيان ومنها حمل الفظ على غير ظاهره ومنها حصول المآل أي وجود المصادقات والأفراد في الخارج في مستقبل الزمان وذلك كالمخترعات الحديثة التي أشار إليها القرآن ولم يكن أحد يعرفها قبل وجودها كقطار السكة الحديدية والتراموای والاتومبيلات والطيارات والقنابل الذرية والهيدوروجينية المتفجرة النازلة على الناس من السموات أي من الأجواء المرتفعات وكالمجلات والجرائد والصحف المنتشرة وكالكهرباء والراديو والفوتوغراف والتليفون والتلغراف والفوتوغراف وكالسينما الناطقة وغير ذلك من أنواع المخترعات التي ينطبق عليها كثير من آيات القرآن كما أوضحنا ذلك تمام الإيضاح في البحث المتعلق بتنبؤات محمد عن المخترعات الحديثة التي وجدت في هذا العصر فهذه المخترعات الحديثة لا شك أنها لم تكون موجودة وقت نزول القرآن ولم يكن أحد يعرفها أو يعرف أن القرآن يعنيها وأنها ستكون مصداقا لكثير من آياته كما أنه لا شك أن معرفة ذلك كان مخصوصا بالله وحده لأنه من الأمور الغيبية المستقبلية. وعليه فالقول بأن قوله تعالى (والراسخون في العلم) كلام مستأنف قد يكون بالمعنى الذي ذكرناه أرجح من القول بأنه معطوف على ما قبله حيث أن الأمور والمخترعات التي ذكرناها ما كان يعلمها أحد غير الله حتى ولا الراسخون في العلم.

(ما أفهمه في المعنى المراد من المحكم والمتشابه

مع تطبيق الآية على هذا الفهم)

إنني الآن أريد أن أبين احتمالا آخر في معنى المحكم والمتشابه غير الاحتمالات العشرة التي ذكرها المفسرون وأن أبين فهما لي آخر أيضا في هذه الآية. وهو أن المراد من المحكم هو المعنى الحقيقي الذي وضع اللفظ له وضعا حقيقيا. وإن المراد من المتشابه هو المعنى المجازي الذي تشابه بمعنى آخر بوجه من وجوه الشبه فأطلق عليه لفظ المشبه وهو المجاز والكناية والاستعارة والرمز والمثل والإشارة. أي أن في القرآن آيات محكمات أي مراد منها معناها الحقيقي الوضعي وأخرى متشابهات أي مراد منها معناها المجازي المشبه بمعنى اللفظ الذي نطقت به الآية وذلك كتعبير بعض الآيات بأن لله يدا أو وجها أو عينا أو بأنه استوى على العرش أو أنه يأتي في ظلل من الغمام ونحو ذلك وكتعبير بعضها أن عيسى

كلمه الله أو روح منه أو أنه رفع إليه أو أنه أحيا الموتى أو أنه نفخ في الطين فصار طيرا ونحو ذلك. وكتعبير بعضها بلفظ (مائدة) مائدة عيسى مرادا بها مائدة العلم والحكمة أو بلفظ (عصا موسى) مرادا بها القوة التشريعية التي تسوق الناس إلى الخير والهدى كما تسوق العصا ونحو ذلك. فهه الآيات هي الآيات المتشابهات التي يكون المعنى المارد منها هو المعنى المتشابه للمعنى الوضعي الحقيقي للفظ الآية الذي ليس مرادا منها هنا وقوله (ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) ليس متعلقا بقوله (يتبعون) كما يقول المفسرون بل متعلق بقوله (تشابه) وتعليل له أي تشابه بعضه ببعض بقصد الفتنة أي اختبار الأفهام والعقول وامتحان الأفئدة والقلوب وبقصد تأويلا لمتشابه حتى يذهب كل إلى مذهب بحده واجتهاده وينال كل من العلم على قدرة عقله واستعداده، كما هي سنة الله في خلقه. أي إنما جعلنا شيئا من القرآن فد تشابه معناه بمعنى آخر بقصد الاختبار وابتغاء التأويل إذ لو جعلناه على معناه الحقيقي واضحا ظاهرا لكل أحد من الأذكياء والبلداء لما كان هناك حافذ للعقل على التفكير والتدبر ولما كان هناك داع للبحث والتأمل والتبصر ولكانت قد تعطلت الأفهام وماتت العقول وأصبح لا فرق بين المعقول وغير المعقول ولا تمييز بين أي منقول ومنقول.

ومعنى قوله (فأما الذين قي قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) أي أن الذين في قلوبهم ميل عن الحقيقة الواقعة ومرض وضعف عن إدراك ما تستوجبه الأدلة اليقينية فهؤلاء يتبعون ظاهر لفظ المتشابه وإن كان غير معقول ويأخذونه على معناه الحقيقي وأن أبته العقول ويتركون المراد منه إن وجدت له في الآية قرائن تشريع إليه ويغضون النظر عنه ولو قامت الأدلة عليه. فهذه الآية تذم المقلدين المتبعين لظاهر اللفظ الجامدين عليه بدون تأمل وتفكير فما يصح أن يكون معناه وفيما يجب أن يأول اللفظ إليه.

(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم)

أي الذي يبحثون عن الحقائق ولا يجمدون على الألفاظ قائلين كل من عند ربنا أي كما أن المعنى الحقيقي الوضعي في المحكم هو من عند الله ومراد له فكذلك المعنى المجازي المشبه بمعنى آخر هو من عند الله ومراد له أيضا لا من عند الفاهم فقط والمفسر والمأول خصوصا إذا كان تفسيره وتأويله بقرائن وأدلة من الكتاب تستوجب أن يكون هذا المعنى هو المراد كما تستوجبه الألفاظ الوضعية وخصوصا وأن التعبير بالكلام المجازي هو أرقى وأعلى وأفصح وأبلغ من التعبير بالكلام الحقيقي.

وعلى هذا الفهم وبمقتضى هذا البيان تسقط الاعتراضات الواردة على هذه الآية إذا أبقينا معنى المتشابه على ما قاله المفسرون من أنه هو والمشتبه بعضه ببعض حيث اعترض عليه وقيل فيه لماذا أنزل الله في كتابه كلاما مشتبها ملتبسا على الناس وحيث اضطروا للجواب عنه ولكن بأجوبة لا تدفع هذا الاعتراض أما إذا فسرنا المتشابه بالمشابه معناه لمعنى آخر في وجه من وجوه الشبه وهو المجاز والاستعارة والكناية فإنه لا يرد مثل هذا الاعتراض لأنه من المعلوم أن المجاز أبلغ من الحقيقة وأحسن في التعبير وأشهى للنفس عند الاستعمال والتفكير.

وبمقابلة ها التفسير بتفسير المفسرين يظهر لك التباين بين التفسيرين في أمور (أولا) أن المفسرين جميعا قد جعلوا قوله تعالى (ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله متعلقا بقوله (فيتبعون) لا متعلقا بقوله (تشابه) كما نقول.

(ثانيا) أنهم فسروا الفتنة في هذه الآية بالفتنة في الدين بين الناس أي الفساد ولم يفسروها بمعنى الاختبار والامتحان كما نقول.

(ثالثا) أنهم فسروا قوله (فيتبعون) بمعنى يتمسكون لا بمعنى يقلدون كما نقول:

(رابعا) أنهم فسروا (الذين في قلوبهم زيغ) بالذين مالوا عن الحق إلى الباطل لا معنى الذين مالوا عن الحقيقة الواقعية المراد من الكلام إلى ظاهر معنى اللفظ الغير مراد لضعف في قلوبهم وتفكيرهم وزيغ في عقولهم وأفئدتهم كما نقول.

(خامسا) أنهم فسروا (المتشابه) بالملتبس أو المماثل بعضه بعضا مماثلة توجب الاشتباه واللبس لا بمعنى المشابه معناه لمعنى آخر بوجه من وجوه الشبه الذي هو المجاز والاستعارة والكناية كما نقول.

وبالجملة فإني أقول أن مجمل معنى هذه الآية أن الله تعالى أنزل في القرآن آيات محكمات أي مراد منها معاني وألفاظها الحقيقة الوضعية كآيات الأحكام والتشريع.

وأنزل أيضا آيات أخرى مجازية مرادا منها معاني أخرى غير معانيها الحقيقية الوضعية لأن المجاز أبلغ من الحقيقة وأوسع منها فيجتهد الناس في فهم المراد منها ويعملوا أفكارهم وعقولهم للوصول إليها على قدر استعدادهم واجتهادهم في فهمها كما هي سنة الله في خلقه. فأما الذين في قلوبهم مرض وضعف وفي عقولهم زيغ وانحراف عن فهم المراد فإنهم يتبعون ظاهر اللفظ ويأخذونه بمعناه الحقيقي ولو كان مخالفا للعقل والوجدان ويتركون المراد منه ولو كان مفهوما منه بالقرينة أو مؤيدا بالدليل والبرهان أي إنما أنزلنا هذا المتشابه أو مؤيدا بالدليل والبرهان أي إنما أنزلنا هذا المتشابه لأجل فتنة الناس أي اختبار عقولهم وامتحان أفئدتهم وقلوبهم ولأجل أن يؤولوه ويفهموه على حسب استعدادهم واجتهادهم فيكون للمخطئ أجر وللمصيب أجران.

(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم)

أي لا يقف على المراد منه إلا الله وإلا الراسخون في العلم النيروا العقول الذين يعتمدون على المقول والذي يقولون كل من المعنى الحقيقي في المحكم والمعنى المجازي في المتشابه هو من عند الله ومراد له (وما يتذكر) أي لا يعرف الحقيقة المرادة بالتذكر والتدبر (إلا أولوا الألباب) أي أصحاب العقول الحرة والضمائر الحية.

ويصح هنا أيضا أن نمشي على القول بأن الراسخين في العلم لا يعلمون ذلك بل يقولون كل من المحكم والمتشابه من عند الله يجب علينا أن نؤمن به وإن لم نفهم معناه وذلك حسب ما قلناه في صدر هذا البحث من أن المراد من قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) أي لا يعلم مآله إلا الله أي لا يعلم مآل هذا المتشابه المراد به معناها المجازي ولا يعلم مما يصدق عليه في المستقبل من أنواع المخترعات إلا الله وحدة وأما الراسخون في العلم فيقولون آمنا به وإن لم نعلم مآله في المستقبل ولا كيفية تطبيقه على ما سوف يحصل من الاختراعات وعلى كل فالله أعلم بمراده.